فصل من رواية

الحـوريّـــة (*)

نبيل سليمان

في وكنةٍ أشبه بالوكنة التي كان يتهجّد فيها طاهر عوانة، التقى الطويبي بحورية المرهج... سوى أن وادي الطويبة أعتم وأدقّ من هذا النهر.

كان يتقدم فرسانه: إلى يمينه يخبط حصان صادق العروضي، وخلفه تبرق البنادقُ الجديدة التي اشتراها، أو أهداها إليه الكابتن آلان، وتتلامع أزرارُ البزّات الرمادية للشباب العشرين. كان الموكب ينفخ الحماسة في القرى والمزارع المناصِرة، كما يروّع الخصوم. وكان يمعن مرةً بعد مرة، أبعد فأبعد عن الطويبة، ومن جهة إلى جهة يخترق الجبال التي يقسم صادق العروضي أن إنسياً لم يسبق إليها.

هذه المرة التف الموكبُ حول السلسلة الخضراء، مراوغاً السفوح الساحلية، مؤثِراً ـ كالعادة ـ المبيتَ في العراء، حيث تخلو الجهة التي يكون فيها زعيم ندّ. ولعل الطويبي كان سيتابع استعراضه المسلّح الأول حتى الحدود، ويداعب معوض أفندي بهجمة كاذبة، أو يُبرم خلف الحدود صفقةً جديدة من البنادق والمسدسات والرصاص، مروّياً الظمأ الذي ابتدأ يلهب أعماقه منذ أنهى الكابورال الفرنسي وفريقه تدريب السرية الأولى من فرسان الطويبة.

بيد أن حورية المرهج ظهرت على المنعطف الذي يلوي عنق النهر، كما ألوى الطويبي عنق حصانه. انلجم الحصان، واقشعر الطويبي، وقد يكون صهل كما صهل الحصان، أو كما يصهل النهر. ثم أشار للفرسان بالوقوف، ولصادق بالاقتراب، وحكّ بالمهماز خاصرتي الحصان، فخيّل للطويبي أن النهر يضاعف صهيله كلما دنت تلك الصبية.

كانت تتوسط امرأتين أقل بياضاً منها، وخلفها تكوّمَ عددٌ من الصبيان. قدّر الطويبي أن موكب النساء والصبيان وصل للتوّ، ولم يبدأ بعدُ الغسلُ والاغتسال. تسمّر الحصان أمام حورية، وخلفه بخطوتين تسمّر حصان صادق. كانت حورية تقف راسخة، محتضنة ثدييها النافرين، تتفحص الحصانين والرجلين، حين احتبس لسان الطويبي، وألقى صادق التحية. ردّت المرأتان، وتهامس الصبيان، أما حورية فسألت بجفاء:

ـ من أنتم؟ ماذا تريدون؟

قال صادق متباهياً:

ـ هذا سيدنا الطويبي.

قالت مستخفّة:

ـ وأنت صادق العروضي إذن.

ـ أراكِ عرفت من نكون!

قال صادق ضاحكاً وحصانه يحاذي حصان الطويبي:

ـ ومن لا يعرفكم؟ أنتَ خاصّة، صرنا نسمع بك أكثر من سيّدك.

ـ اخرسي. من أنت؟

صاح صادق هاجماً، فأخرجت ذراعيها وصاحت:

ـ قطع الله لسانك. اخرسْ أنت.

شبّ صادق وشبَّ الحصانُ وشبّت البندقية، لكن كف الطويبي أشارت والسؤال ينفلت منه:

ـ من أنتِ؟

ـ أنا حورية المرهج.

(*) من رواية **أطياف العرش** التي تصدر قريباً عن دار شرقيات، القاهرة.

قالت باعتداد، ثم أومأ حاجباها إلى صادق العروضي وأمرا:

ـ قلْ لصاحبك: فوْرَتُهُ لن تنتهي على خير.

قال صادق ساخراً:

ـ أنتِ من تزوجتْ أمُّك بعدما شابت وشبع منها أَغَواتُ الأرمن والأتراك معاً؟

اندفعت حورية صوبه هادرةً:

ـ اخرس قطع الله لسانك، أغوات بلادك كلهم لا يطلع لهم لحسة من ظفر واحدة منا.

أشارتْ كفُّ الطويبي لصادق، وخاطب حورية برقة:

ـ اهدأي يا بنت الناس.

ـ هذا من يخطف لك بنات الناس؟ ربُّ كلابك يا طويبي.

ـ لا تخافي.

قالها ضاحكاً وحصانه يقطع نحوها خطوته الأخيرة، فسألت متحدية: صدّقت أنكم تخوفون فأرة؟

ـ اهدأي يا حورية. أشهد أنك حورية. متزوجة أم عازبة؟

سأل الطويبي وقد بدا كأنه يحلم، فقال صادق:

ـ طاب لها يا سيدي أن تعمل نفسها نمرودة، وتتأبى مثل أمها على الكبير والصغير.

قالت حورية:

ـ ها هو كلبك يعرف كل شيء. لا تفلت منه رائحة، لا زكية، ولا نتنة.

لَوَّنَ الحلم وجه الطويبي وهو يهمس:

ـ ما رددتِ على سؤالي.

قالت متشامخة:

ـ عازبة.

ـ لو خطبتك من أهلك تقبلين بي؟

جاء صوته أقرب إلى النجوى، وحاصت عيناها ضاحكتين قبل أن تشير إلى المرأتين والصبيان قائلة:

ـ مالي إلاّ هؤلاء. تخطبني منهم؟

ثم أردفت مقطبة، وصوتها يتوه بين الهزء والجدّ:

ـ وتخطبني هنا، على حافة النهر؟ هذا لا يليق بالطويبي. كم امرأة تريد أن تتزوج؟

ـ تقدرين أن تقولي: الطويبي ما تزوج بعد. عندي اثنتان، نعم، وعفتُ واحدة، وعندي أولاد، لكني عازب. ما هكذا يا صادق؟

قال وهو يلتفت حوله مستنجداً. فأجاب صادق بتكلف:

ـ مزحة حلوة يا سيدي.

نهرتْ حورية الطويبي:

ـ بنات الناس عندك وعنده مزحة؟

لجأت عيناه إلى النهر، وتماثل الفراتُ ضامراً ومعاتباً. أحكمت شفتاه انطباقهما وهما تَتَسَمَّيَان نهراً باسم رملة ونهراً باسم حورية. أخلد هنيهة للمويجات وحفيف الصنوبر ونبض قلبه. ودّ لو أن شفتيه تتسميّان أنهاراً أخرى سوف تأتي إليه. عادت عيناه إلى حورية، واجتاحه دعاء حار إلى أن تنفخ من روحها فيه وفي الفضاء، لكنها كانت تبتعد وصوتها يقترب:

ـ أنا لست بنت الشيخ توفيق علاط ولا بنت الشيخ ناظر ميمونة. لست أرمنية ولا مسيحية. استحوا وامشوا.

لحق الحصانُ بالصوت والطويبي يناشد:

ـ إذا رضيتِ بي يكون عرسُك الليلة.

وقفت تحدق فيه، ثم سألت كأنما تنازل:

ـ وإذا ما رضيت؟

أَجْفَلَ الحصان، وجاهد الطويبي كي يكون صوته مسموعاً:

ـ قولي: ما الذي يرضيك؟

نظرتْ شزراً إلى صادق والفرسان الصامتين، وتراخت كلماتها:

ـ أنا لا أعيش مع ضرّة، ولا مع صاحب كرش.

هزج الطويبي وهي تسير مردفة:

ـ ويكون موّالُكَ من رأسك. إذا قدرت على شروطي خبّرني. أنا أَحضر لك بنفسي.

نادت أصابعه الفرسان، وهمز الحصان، فخبّ قليلاً وهو يتجاوز حورية، ثم انطلق، وصادق يعجز عن اللحاق به، وقعقعة الفرسان تملأ الفضاء. ولم يهدأ الموكب الهائج حتى أطلّ على السراي الصيفية لعبد الحليم آغا.

* * *

على الغداء ذكر صادق العروضي حورّيةَ المرهج، فزجرته عينا الطويبي، لكن عبد الحليم آغا قال:

ـ سأموت في حسرة امرأة من هذه الأسرة.

وفي الإياب همس صادق في أذن الطويبي، والنهر يبرق في ضوء القمر:

ـ عبد الحليم آغا هو نفسه مَنْ رمّل أم حورية، وظل يجري خلفها بعدما غرق وحيدها في النهر حتى هربت إلى اسكندرون، وربما ماتت أو تزوجت، لا أحد يعرف.

سأل الطويبي بامتعاض:

ـ لماذا خبأت عني هذا طوال الوقت؟ ماذا تخبِىء أيضاً؟

قال صادق مدافعاً الحيرة:

ـ ما جاءت مناسبة لأحدثك في هذا. عبد الحليم آغا بنفسه جرى خلف حورية. ابنه جرى خلفها وخلف أخواتها. لكن حورية كانت أقوى من أمها ومن شقيقها الغريق. هذه المرأة مسترجلة. نساء هذه العائلة مسترجلات يا سيدي. لكن مزحتك كانت حلوة، مع أنك سمحت للكلبة أن تعوي عليّ. ظني أنه إذا كان في رأسها ذرة عقل لطارَتْ بعدما سمعتْ منك ما سمعت!

قال الطويبي مصطنعاً الحياد:

ـ كأني أراك مشغولاً بها.

قال صادق مستنكراً:

ـ سيرتها وسيرة عائلتها على كل لسان. لو تركت عبد الحليم آغا على راحته لحكى لك، ما عبرت مرة من هنا إلا سمعتُ عنها خبراً جديداً.

سكت الطويبي، وساء صادق أنه ظل صامتاً بقية الطريق. أما الطويبي فكان يستعيد صوت حورية، والصوت يضيع منه، كما تضيع منه صورتها. كان خوفه يكبر من أن تكون جادة، فتحضر ذات يوم إلى الطويبة، دون أن يقدر على أن يفي بشروطها. ولعلها تحضر في غيابه، فيتلقفها صادق العروضي. وكلما اقترب من الطويبة، مسابقاً القمر، كان يقينه يكبر في أنها لم تظهر في دربه جزافاً. ولولا ذلك لما قطع استعراضه عند مصيف عبد الحليم آغا، وتعجل الطويبة هذه الليلة، لاوياً عن إلحاح صادق على المبيت، لا لأن السير أضنى الخيل فحسب، بل لكي يرى القومُ موكبَ الطويبي في النهار، ويستقبلوه كما ودعوه.

* * *

عزف الطويبي عن الناس إبان عودته، وشكوكُ صادق العروضي في أن سيده يفكر بحورية المرهج، تكبر كل يوم. لذلك أوأ مراراً إلى بنات رعد بك الموسى اللواتي تتغنى مواويل العتابا بحسنهنّ ـ من قلب البادية، جنوبي البلاد، إلى رؤوس الجبال وقيعان الأنهار، كما أكد صادق ـ مُزَيِّناً إيماءاته بما تَعِدُ به مصاهرةُ رعد بك الموسى، على الرغم من البعد، وربما بسبب البعد، مما يوطد الأركان التي يخشى أن هذه الأيام بدأت تزعزعها.

لكن الطويبي ظل صامتاً، يذكّر كثيرين ـ قبل صادق العروضي ـ بطاهر عوانة حين زلزلهم بمرضه أو بالخضر أو بشاراته على الطريق الجديدة إلى الدنيا والآخرة. ولم يلبث صادق أن أخذ يجرؤ على أن يفكر في أن الطويبي قد يخرب كل ما شيد، إنْ لم يخرج مما هو به، منذ صادف حورية المرهج.

ثم جاءت المطرة الخريفية الأولى أبكر وأغزر من العهد بها. فاضطر الطويبي إلى أن يبرح مطرحه تحت السنديانة، حيث صار يبيت أيضاً في الأسبوع الأخير، تحرسه عيون الفرسان. وكانت ناهي وغزالة تتهامسان حائرتين ومشوقتين إلى الليالي التي كان يتنقل فيها بينهما. وقد يكون هذا ما جعلها تستبشران بالمطرة، وتتغامزان، إلا أن الطويبي خاطبهما بعد العشاء الذي تسابقتا في إعداده:

ـ ناما معاً في غرفة ناهي. في الصباح، حتى لو لم تصحُ السماء، يمشي مع كل واحده ثلاثةٌ من الفرسان مع الخيول والولدين. كل واحدة تجمع الآن كل ما يلزمها وما لا يلزم، وتبقى في بيت أبيها، لا تخرج منه حتى تموت إذا لم أنادِها. أما بنت رملة فتعود إلى أمها.

وكما لم تصدق أي منهما، وكما لم يصدق صادق العروضي، فقد كان الطويبي غير مصدق أيضاً، يتكهن حول رحيل الزوجتين والولدين ولحاق بنت رملة بأمها، شأن كل من يتكهن في الطويبة أو في طويبة الشعر أو في الطويبة الشرقية، وحيثما وصل الخبر. ولم يكن أحد سواه يدري بذهاب ابن نديم المكشوح إلى بيت حورية المرهج.

عصر اليوم التالي لخلو البيت أفاق الطويبي من قيلولته على وقع حوافر حصان. استوى في السرير يخشى أن يكون رسوله قد عاد مخيباً. نط من السرير وجرى إلى الباب، فإذا بحورية منتصبة فوق الحصان. هفتْ ذراعاه إليها، فقفزت مثل أي من الفرسان وابتسامتها تعرض. تراخت الذراعان وهي تتجاوزه ثم تبعها دون أن ينبس أحدهما. وقبل أن تجلس دخل صادق العروضي، فأمرته عينا الطويبي بالخروج، وهمست حورية:

ـ ها قد لبّيتك على الرغم من أنك ما وفيت بوعدك. هذا دين يبقى لي في عنقك مدى العمر.

اقترب من كرسيها يرتعش، ولهج مقسماً على الوفاء. نأت قليلاً وهي ترتعش، وبدت مثله مشوقة وخائفة. ابتهلت أصابعه إليها، وطِيبها يعبق. أرخت رموشها كأنها تدثره، وتناثر همسها:

ـ يا ويلك يا حورية! كيف مشيت إلى حتفك بنفسك؟ أنتَ من طينة وأنا من طينة فما الذي جرى؟ الله يعينني ويعينك.

تراجع الضياء وأصابعهما تتشابك وتتنافر، ولعله استطاع قبل أن تغيبهما العتمة أن يلثم شعرها أو يمرغ فيه وجهه. ولعلها كانت قد دفعته أو جذبته ليختفي في حضنها، حين هجم من الباب ضوءُ «اللوكس» يسبقه صوتُ صادق العروضي:

ـ حلّ العشاء يا سيدي.

أجفل الطويبي ونأى عن حورية مطرقاً، فيما علّق صادق اللوكس متباطئاً، تلاحقه نظرات حورية وتقرأ في قفاه العريض هزءاً ووعيداً. وعندما واجهها صدره أجفلها ضيقه البالغ وصوته يسجح:

ـ ألا يأمر سيدي بشيء؟

نفت هزة من رأس الطويبي، وحورية تقف وتتهادى نحو الباب آمرةً بغلظة:

ـ في المرة القادمة تستأذن يا صادق بالدخول، ولا ترفع عينك عن الأرض إذا كلمت سيدك أو كلمتني. اخرج الآن وانتظر قرب الباب حتى يناديك أحدنا.

رفع الطويبي رأسه مشدوهاً، ونظر إليها ببله، كما كان صادق ينظر، ثم صاح وهو يقف:

ـ ما سمعت؟ أغلق الباب خلفك.

وبرم تحت اللوكس يلاقي صوته الذي ضاع منه على ضفة النهر، لحظة واعدته حورية. واندفعت ضحكته كأنها صهيل حصان يخبط الآن على ضفة النهر. وبرمت حورية خلفه، لكنها لم تستطع اللحاق بالحصان الذي كان ينجلي عمن راودت منذ بدأت تضيق بامتلاء وركيها ونفور حلمتيها. ولم تلبث أن تكومت، تحت اللوكس وفي لجة النهر، تنتظر الرجل الذي نزل الهوينى محمحماً مثل حصانه. وانقادت إلى كفّ لدنة حارقة، والحلمتان المنتصبتان تتعجلان شفتين وأسناناً. وفيما كان يتناثر ملءَ السجادة فستانٌ وقمبازٌ وسروالان، كانت هي تغرق، مثل الطويبي، في ملوحة الجَسَد والدمع والضوء، وفحيحٌ ينادي النهر الذي ينأى والحصان الذي عاد مهراً يرفس.

نادى الطويبي بالناس أن حورية هو، وهو هي. وأمام البيت ألف أن تنتظره كل مساء معطرةً، تتأبط ذراعه، تقوده إلى الماء الساخن، تغسل روحه مثل جسده، تطعمه وتسقيه الماء الزلال، تستقبل الزوّار معه. ومثلهم ينقاد إلى سطوتها هانئاً ومسلّماً لمن نشأتْ ـ لا ريب ـ تسوس الناس. ولا يكاد يخلو لهما البيت حتى تهصره بين فخذيها القاسيتيْن، وتطلق شهيقه، فيلفظ الروح على صدرها، وينام.

أما صادق العروضي فلم يعد يجرؤ على أن يبعد عن الطويبي، خوفاً من أن تحكم حورية قبضتها عليه تماماً. كان يطأطىء لها، وهو يسوط نفسه على أن تضمره سريعاً، وتكشف له ما تضمر قبل أن يفوت الآوان.

رويداً بات يشغله أن يجد سبيلاً إلى زواج الطويبي من أية امرأة كانت. ما عاد يهمّ أن تكون واحدة من بنات رعد بك الموسى أم لا. ولما استبد به ذلك ظهر معوض أفندي معلناً استغناء الحكومة عنه، وشكه في أن يكون عبد الحليم آغا خلف ذلك(...)

اللاذقية ــ سوريا